·جدل الوافد والموروث بين الحضارتين الاسلامية والغربية·

د/ ناصر صلاح الدين شبكة

جامعة النيلين – السودان

ملخص البحث

تشكّلت الحضارة الغربية الحديثة أيضاً من إجتماع عنصريّ الوافد والموروث والذي أصبحت بمقتضاه تمثّل وافد الحضارة العربية الإسلامية، كما أن طبيعة الدور الذي أدته الحضارة العربية الإسلامية في فترة إزدهارها كثقافة وافدة للحضارة الغربية يتضمّن التقرير بأن الموروث الثقافي العربي أو الإسلامي أصبح موروثاً من الرتبة الثانية؛ بمعنى أنه أثر في الحضارة الغربية ثم عاد بواسطة الثقافة الغربية الحديثة والمعاصرة ليصبح ذا دور رئيسي في تشكيل الثقافة العربية الإسلامية الراهنة. وبالتالي فإن تحليل واقع الثقافة العربية الإسلامية الحالي يجب أن يبدأ بالقراءة الفلسفية لتاريخ تطور الحضارة الغربية وثقافتها. فكما أن تطور الحضارة الغربية قد مرّ بنقطة محورية تمثّلت في ظهور المسيحية، كذلك فإن ظهور الإسلام في الحضارة العربية قد مثّل النقطة المحورية المقابلة، وبالتالي فإن إنتقال الثقافة الغربية من طور الحضارة إلي طور المدنية لا بّد وأن ينعكس علي الموروث العربي الإسلامي والذي يدفعنا بدوره للتساؤل حول إمكانية تحول الحضارة العربية الإسلامية إلي طور المدنية كسبب في إتساع الفجوة بين الموروث والوافد.

وعليه فقد عمدنا من خلال هذه الورقة إلي:

- المقارنة بين كلاً من تاريخ تطور الحضارة الغربية و دور المسيحية في التأثير علي تكوين ثقافتها الراهنة، وبين تاريخ تطور الحضارة العربية الإسلامية مع الأخذ في الإعتبار التفاعل التاريخي بينهم.

- تحليل نقاط التحول المحورية في كلا الحضارتين مع الأخذ في الإعتبار طبيعة العامل السياسي أو درجة الهيمنة الحضارية و المادية بين كلاً منهما.

محاولة إسقاط مجري التطور الثقافي للحضارة الغربية علي مجري تطور الحضارة العربية الإسلامية من ناحية تاريخية أولاً و من ناحية طور الإنتقال من الحضارة إلي المدنية ثانياً.

- تحليل دور تكنولوجيا الإتصالات في تسارع عملية التأثير علي تكوين الثقافة العربية الراهنة و إمكانية تشكّل ثقافة عربية إسلامية تتخذ منها أداة لإعادة تصديرها كوافد من الرتبة الثانية للمدنية الغربية المعاصرة.

مقدمة

بداية من الحضارتين السومرية والمصرية وحتي مرحلة ما بعد العولمة وما بعد النظام العالمي الجديد عبرت الإنسانية بمراحل تارخية عظيمة شكلت الإرث البشري للحصيلة التراكمية للمعرفة الإنسانية والتي تنبع من الرغبة الواعية أحياناً؛ واللا واعية أغلب الأحيان من التاريخ؛ للإنسان في بحثة عن الحقيقة الانطلوجية لذاته.

ولكن كما هي عادة العقل البشري بداية من أرسطو وحتي ما قبل أرسطو أو بفعل مجري تاريخ الفكر المعرفي، فإن مبدأ التصنيف يظل يغلب علي مناهجة ليس المعرفية فحسب، بل والحياتية

وعلي الرغم من أن مصطلحات الحضارة والمدنية والثقافة إبتدعت بمعناها الحديث بداية في القرنين السابع عشر والثامن عشر إلا أن الفكر الإنساني آبى إلا أن يحاول إسقاط هذه المفاهيم (التصنيفات) علي ما سبقه من تاريخ. وهي إذا ما تمعنا في مفاهيمه نجدها مترادفات ذات نسبية عالية فيما بينها ونسبية أقل عند تناولها كلاً علي حده.

ولكن من المؤكد أن الثقافة تتبع مفهوم الحضارة تماماً كما أن مفهوم

الحضارة قد يستعاض عنه بمصطلح الثقافة، وبالتالي فإن العلاقة التبادلية Interrelated بين مفهومي الثقافة والحضارة أدت إلي تعدد المفاهيم الشئ الذي لم تعد معة إمكانية رسم حدود فاصلة بين المفهومين أمراً ممكناً

كذلك نجد أن الخاصية الأساسية للثقافة هي التطور Evolution، وهو ليس تطوراً إتجاهياً بقدر ما يُعبّر عن ديناميكية الحياة الإنسانية بداية من أدق تفاصيلها اليومية وحتي المجرى العام للتاريخ الإنساني وتعاقب الحضارات.

فبينما يمكن لحضارة ما أن تتلاشي بفعل الظروف علي إختلافها لكن تبقي ثقافتها باقية رهينة بشعوب تلك الحضارة المندثرة، فبداية من أصغر وحدات الحضارة متمثلة في الفرد ومروراً بالأسرة وإنتهاءاً بالعنصر العرقي وحتي الأجناس المكوّنة لحضارة ما، فإن الحضارة كقالب تنظيمي (تصنيفي) للمجتمعات الإنسانية؛ تظل هذه الوحدات هي وسيط ثقافة الحضارة التي نشأ وترعرع في كنفها ؛ فإذا ما تلاشت مقومات إستمرار هذه الحضارة فإن ثقافتها لا تندثر معها ولكن تفقد معها عوامل الثبات النسبي Robustness وبذا تكون أكثر عرضة للتغير المتسارع بفعل العوامل المشكلة لثقافة هذه الحضارة كالهجرات أو العرضة للعوامل البيئية أو حتي الدخول تحت مظلة حضارة وثقافتها الجديدة. ومن هذا المنظور فإن تصنيف أية ثقافة بحسب حضارتها لا بد وأن يصادف إشكاليات عديدة تتمثل أهمها في تعقّب التغيرات الطارئة علي ثقافة حضارة ما عبر مختلف مراحل التاريخ.

فمن المنظور الأعم لنظريات التطور الثقافي Theories of Cultural Evolution تحاول هذه النظريات تفسير سبب تشكّل ثقافة أي جنس من الأجناس بصورتها الراهنة، الشئ الذي يقتضي إعتبار مدي التنوع Diversity داخل هذه الأجناس كما يستلزم بالضرورة الأخذ بعين الإعتبار الخصائص التكيّفية Characteristic Aadaptation لهذة الاجناس. ولكن علي إختلاف المداخل التي تحاول هذة النظريات إتخاذها إلا أنها تجمع علي أهمية الموروث الثقافي Cultural Inheritance كعامل أساسي في تفسير ظاهرة التطور

الثقافي. ولكن تظل الإشكالية الأساسية قائمة ومتمثلة في نقطة الإنطلاق المرجعية، فالتطور الثقافي هو عملية مستمرة وأبدية في التاريخ الإنساني وبالنظر إلي الفجوات التفسيرية (التأريخية) للبدايات الأولي للمجتمعات الإنسانية فإن إتخاذ أية نقطة مرجعية هو بمثابة إجراء إعتباطي Arbitrary لابد وأن يحوي إعتقادات إفتراضية Hypothetical Assumptions لمجري تطور ثقافة مجتمع ما في مرحلة ما قبل عملية تأريخها.

فظاهرة التعلّم الإجتماعي تتخذ دور العامل الحاسم ليس فقط لضمان التطور الثقافي للمجتمعات إذ أن بقاء المجتمعات وتلاقحها لا يقوم فقط علي عملية التعلم من الأخرين ولكنه جزيئاً يمثل جانباً من المشروع التراكمي الذي يقوم علي الإستفادة من إكتشافات الاخرين.

وعليه فإن السؤال الذي يطرح نفسه لا يكمن في مدي أهمية نظريات التطور بقدر ما يتمثل في كيفية صياغة هذة النظريات وذلك عند الأخذ في الإعتبار تداخل وإستمرار عملية التطور للدرجة التي تكاد تقارب معها منحى التطور العضوي.